المحاضرة التاسعة(استراتيجيات البحث الاجتماعي التطبيقي)

تصميم بحوث المشروعات ونماذج على تنفيذها

تمهيد :

ظهر مصطلح بحوث المشروعات لأول مرة في مقال كتبه كيرت ليفين عام ١٩٤٦ ثم تطور على يد علماء من أمثال تريست ، وأخذت تظهر له نماذج وتيارات بعضها تقليدية، والأخرى سياقية والثالثة راديكالية وهكذا . وارتبطت بحوث المشروعات بالنماذج النظرية التي تهتم بالممارسة ، ويشدد البحث على الاهتمام بحل المواقف التي تنطوي على إشكالية. ويعتبر بحث المشروعات من بين البحوث الكيفية، ويعتمد على خطة عمل تأخذ شكل الدائرة، وظهر له عدة خطوات لابد منها عند التفكير في وضع تصميم منهجي لبحوث المشروعات ، ويظهر بوضوح دور الباحث في هذا النوع من البحوث ، وترددت بناء على الخبرة في هذا النوع من البحث ، مجموعة من الطرق والأدوات المنهجية التي يفضل استخدامها في بحوث المشروعات ، كان من أهمها مؤتمر البحث كأداة أساسية ، كما تبلورت مجموعة من المبادئ الإرشادية في العمل والاعتبارات الأخلاقية .

وهناك في التراث مجموعة من النماذج على تنفيذه .يمكن الرجوع إليها للتعرف على طبيعة بحوث المشروعات . وفى هذا الإطار تم ترتيب عناصر الفصل الحالي لتشمل التعريف ببحوث المشروعات و أهدافها ،ثم بيان تطور بحوث المشروعات سواء من حيث تطور نماذجه أو أسسه النظرية ، وبعدها يتم توضيح الإجراءات المنهجية في تصميمه ، وأهم النماذج على تنفيذ بحوث المشروعات في الواقع .

أولاً: تعريف بحوث المشروعات وأهدافها.

لقد عرف بحث المشروعات بأسماء أخرى كثيرة يشمل ذلك ، بحوث المشاركة Participatory، والبحث الذى يقوم على العمل الجماعي Collaborative،أو بحث التحرير Emancipatory ، أو التعلم عن طريق العمل Action Learning وبحث السياق contextual ، غير أن كل هذه التسميات تعد بمثابة تنويعات على نفس الموضوع .

التعريف الأول : ويمكن أن نشير إلى بعض تعريفات بحوث المشروعات المقبولة على نطاق واسع ، أبسطها هو عملية تعلم عن طريق العمل ؛ فيها يقوم بعض الناس بتحديد مشكلة ما ، ثم يقومون بجهد من أجل حلها ، ثم يتابعوا مدى نجاح جهودهم وإذا لم تكن مرضية ،فإنهم يكررون جهدهم مرة أخرى . وعلى الرغم ان هذا التعريف يعكس جوهر هذا المدخل ، إلا ان هناك سمات اخرى أساسية لبحث المشروعات .

تسهم في تميزه عن النشاطات الشائعة و التي تتركز حول حل المشكلات – Problem Solving، التي قد تشغلنا جميعاً في كل يوم . و أما التعريف الأكثر إحكاماً هو : إن بحث المشروعات يهدف إلى الإسهام في كل من الاهتمامات العملية للناس في موقف ينطوي على إشكالية مباشرة ، و أيضاً يعمل على تحقيق أهداف العلم الاجتماعي في نفس الوقت . وهكذا ، هناك التزام مزدوج في بحث المشروعات بدراسة النسق ،و المشاركة إلى جانب ذلك مع أعضاء النسق systemفي العمل على تغييره على نحو ينظر إليهما معًا باعتبارهما يسيرا في الاتجاه المرغوب فيه .وتطلب إنجاز هذا الهدف التوأم المشاركة الفعالة من جانب الباحث ، و المبحوثين ، و هكذا فالبحث يؤكد على اهمية التعلم بالمشاركة كسمة أولية تميز عملية بحث المشروعات .

التعريف الثاني: ويعد بحث المشروعات في تعريف آخر بمثابة أحد أشكال البحث الذى يعتمد على التأمل الذاتي Self-reflective ، ويقوم بإجرائه المشاركين في المواقف الاجتماعية و بما في ذلك مواقف التربية و التعليم ، من أجل تحسين مستوى المعقولية rationality والعدالة في :

- ممارساتهم الاجتماعية أو التعليمية الخاصة .

- وفهمهم لهذه الممارسات .
- و المواقف التي تجرى خلالها هذه الممارسات .

وفي معظم الاحوال يجد هذا النوع من البحث تدعيماً له عندما يضطلع به المشاركون على أساس من المشاركة . و أحياناً بالتعاون مع أعضاء من خارج الميدان .

التعريف الثالث: ويؤكد تعريف ثالث إن بحث المشروعات يسعى إلى فهم الواقع ، وهو فهم لا يقوم على جانب واحد يقتصر على فهم الباحث وحده ، وإنما يسعى فهم الواقع إلى الاستفادة من فهم المبحوثين أيضاً له ، وذلك من خلال التفاعل المتبادل بين الباحث و المبحوثين ، بنفس المعنى الذى كان يقصده باولو فيريرى ، عندما اكد على العملية التي لا يكون فيها المبحوثين مستقبلين متكيفين مع الباحث ، بل ذوات عارفة مدركه فتسعى عملية البحث السوسيولوجى (بحث المشروعات) إلى تعميق إدراكها للواقع ، الذى يشكل حياتها ، ويساعد على تعيين مقدراتها وإراداتهما لتحويل هذا الواقع و تطويره .

وليس هدف المشاركة في بحوث المشروعات ، ملاحظة المبحوثين للحصول على بيانات و معلومات حول سلوكهم ، وأفعالهم ،وقيمهم ، بل هدفها ان تكون مشاركة فعالة و فاعلة لملاحظة التغييرات ، بعد الإسهام مع المبحوثين في أحداثها ، وذلك ليس لرصدها وتقويمها فقط ؛ و إنما لمساعدة المبحوثين على إدراك ما إذا كانت تسير نحو تحقيق مصالحهم و إشباع حاجاتهم ام لا ، والتعاون معهم لتصحيح هذه التغييرات إذا كانت ستذهب بعيدا عن هذه المصالح ، أولا تحققها كلها أو بعضها .

وما يميز هذا النوع من البحث عن الممارسات المهنية العامة ، والاستشارة أو النصح consulting أو الحلول اليومية للمشكلات ، هو التأكيد على الدراسة العلمية : بمعنى أن يقوم الباحث بدراسة المشكلة على أساس منهجي منسق وضمان أن عملية التدخل intervention لحلها قد قامت على المعرفة بالاعتبارات النظرية المتاحة حول هذا النوع من المشكلات .

ومعظم وقت الباحث قد ينصرف نحو اعادة تنقية الأدوات المنهجية لكي تتلاءم مع متطلبات الموقف ، ومع جمع وتحليل وعرض البيانات وذلك على اساس دائري مستمر cyclical .

وهناك سمات اخرى عديدة تميز بحث المشروعات عن غيره من أنواع البحث الأخرى. فالأولوية في هذا البحث تشير الى تركيزه على دفع الناس الى الاندماج مع الباحثين ، وأيضا - حيث يتعلم الناس على نحو افضل وتتولد لديهم الإرادة على تنفيذ ما تم تعلمه ، عندما يقومون بعمل ذلك بأنفسهم . ولبحث المشروعات ايضا بعد اجتماعي – حيث تم إنجاز البحث في مواقف واقعية من العالم ، ويهدف الى حل مشكلات فعلية ، وفي النهاية ، فان الباحث المبادر على خلاف النظم الفكرية الاخرى ، لا يقوم بأي محاولة ليبقى موضوعيا ، وإنما يعترف صراحة بتحيزه الى جانب المشاركين الاخرين.

ويستخدم بحث المشروعات في المواقف الواقعية ، اكثر مما يطبق في الدراسات التجريبية أو المخططة ، طالما كان محور تركيزه الأول ينصب على حل مشاكل واقعية. وبالإمكان على أية حال ، استخدامه بمعرفة العلماء الاجتماعيين من أجل اجراء بحوث استطلاعية أو تمهيدية ، خاصة عندما يكون الموقف بالغ الغموض ، لبلورة مشكلة بحثية دقيقة ، ولو انه في معظم الاحوال ، وتمشيا مع مبادئ هذا النوع من البحوث (بحوث المشروعات) ، يختار عندما تتطلب الظروف قدرا من المرونة، وإدماج الناس في البحث ، أو ينبغي احداث تغيير سريع او على نطاق كلى . وغالبا ما يضم اولئك الذين يطبقون هذا المدخل في البحث ، فئة الممارسين الذين يرغبون في تحسين فهمهم لما يمارسونه من عمل ، أو نشطاء التغير الاجتماعي الذين يحاولون تنظيم حملات عمل وكذلك فئة الأكاديميين الذين تم دعوتهم من جانب احد التنظيمات وبناء على ادراك صناع القرار بأن هناك مشكلة تتطلب بحثا (بحث المشروعات) .

ولكنهم يفتقرون الى المعرفة المنهجية اللازمة للتعامل مع هذا النوع من البحوث . والخلاصة ، ان بحوث المشروعات تمثل عملية تعلم عن طريق العمل فيها يقوم البعض بتحديد مشكلة ما ، ثم يقومون بجهد من اجل حلها ، ثم يتأملون مدى نجاح جهودهم وتقييمها ، ويكررون جهدهم مرة اخرى اذا لم تكن الحلول مرضية . ويلتزم بحث المشروعات أولا

بدراسة النسق ، وثانيا بالمشاركة مع اعضاء النسق في العمل على تغييره في الاتجاه المرغوب فيه. ويعتمد بحث المشروعات على التأمل الذاتي الذى يقوم بإجرائه المشاركين في المواقف الاجتماعية من اجل تحسين مستوى معقوليتها ودرجة عدالتها . ويسعى بحث المشروعات الى فهم الواقع والاستفادة بفهم المبحوثين أيضا ، والتفاعل المتبادل بين الباحث والمبحوثين من أجل تحويل هذا الواقع وتطويره ، ويقوم على ضرورة دراسة المشكلة بطريقة علمية منهجية منسقة ، وضمان ان عملية التدخل لحلها بنيت على معرفة بالاعتبارات النظرية المتاحة حول هذا النوع من المشكلات .

والاولوية في هذا البحث تركيزه على دفع الناس للاندماج مع الباحثين لكى يتعلم الناس على نحو افضل وتتوافر لديهم ارادة التنفيذ، ويتم انجاز البحث في مواقف واقعية، ويهدف الى حل مشكلات فعلية .

ثانياً : تطور بحوث المشروعات:

أ - النماذج والتيارات الرئيسية

ب - الأسس النظرية :

يعتبر كيرت ليفين k.lewin عموما هو أب بحوث المشروعات ، فلقد كان عالم النفس التجريبي والاجتماعي الألماني هذا ، وباعتباره أحد مؤسسي مدرسة الجشطلت Gestalt، معنيا بالمشكلات الاجتماعية ، وركز اهتماماته على عمليات الجماعة المشاركة من اجل التعامل مع الصراع والأزمات والتغير في داخل التنظيمات بوجه عام . وكان يشارك اساسا في أعمال مركز ديناميات الجماعة في بوسطن ، ولكنه غير نشاطه وأنشأ معمله القومي للتدريب . وقد صك ليفين لأول مرة مصطلح بحوث المشروعات في مقالة عام١٩٤٦ حول بحوث المشروعات ومشكلات الأقليات Action research & minorirt problems ،.

وأخذ يميز بحوث المشروعات على انها بحوث شاملة حول ظروف ونتائج أشكال متباينة من الفعل الاجتماعي أو هو البحث الذى يؤدى بدوره إلى فعل اجتماعي Socail Action مستخدما عملية حلزونية الخطوات Sporal of steps .

وتتكون كل خطوة منها من دائرة للتخطيط والعمل ، والتوصل الى نتائج حول محصلة الفعل . وكان اريك تريست E.Trist ، مشاركا رئيسيا أخر في هذا الميدان منذ حقبة ما بعد الحرب مباشرة باعتباره طبيبا نفسيا اجتماعيا ، انشغلت مجموعته في معهد تافستوك Tavistock للعلاقات الإنسانية في لندن بالبحث الاجتماعي التطبيقي ، في الاصل لصالح إعادة اللاجئين المدنيين من سجناء الحرب الالمان . ومال هو وزملاؤه الى التركيز أكثر على المشكلات الضخمة التي تخص تنظيمات متعددة . وكلا من ليفين وترست طبق بحوثه على التغييرات المنسقة في التنظيمات وبينها وكانا يؤكدان على المشاركة المباشرة بين العاملين والعملاء. واثبتوا دور علاقات الجماعة كأساس لحل المشكلات . وكلاهما كان مؤيدا شديد لمبدأ أن القرارات يتم انجازها على نحو أفضل عن طريق أولئك الذين ساعدوا في اتخاذها.

أ- النماذج والتيارات الرئيسية

ولقد تطور هذا الميدان مع اواسط عام ١٩٧٠، وكشف عن بزوغ تيارات رئيسية ، بعضها تقليدي ، والاخر سياقي contextualوتعلم الفعل action learning ، والثالث راديكالي radical والرابع بحوث المشروعات التربوية educational .

وقد نشأت بحوث المشروعات التقليدية traditional عن جهود وأعمال (ليفين) داخل التنظيمات ، والتي اشتملت على مفهومات وأساليب نظرية المجال field theory ، وديناميات الجماعة ، وجماعات (ت) T- group، والنموذج الإكلينيكي . وأدت الاهمية المتزايدة للعلاقات بين الادارة والعمال الى تطبيق بحوث المشروعات في مجالات التنمية التنظيمية ، وجودة حياة العمل (QWL) والأنساق الفنية الاجتماعية (بمعنى اتساق المعلومات) والديمقراطية التنظيمية .

وكان هذا المدخل التقليدي يميل تجاه النزعة المحافظة ، أو المحافظة عموما على الوضع القائم statuesque ، مع الاخذ في الاعتبار أبنية القوة في التنظيم . أما بحوث المشروعات السياقية contextual ، والتي أحيانا ما تمت الإشارة إليها باعتبارها تعلم عن طريق الفعل ، فهو مدخل نشأ عن أعمال بناء العلاقات البنائية بين الفاعلين في البيئة الاجتماعية ، ويبنى على المجال domain، بمعنى انه يحاول ان يضع كل الاطراف المؤثرة مثل الأمناء والأوصياء باعتبار أن كل مشارك منهم يفهم العمل في جملته ، ويؤكد البحث أن المشاركين يعملون كمصممين للمشروع ، ومتعاونين في العمل مع الباحثين . وقد ظهر في هذا السياق مفهوم الإيكولوجيا التنظيمية organizational Ecology واستخدام مؤتمرات البحث search conferences ، وتأكد من خلال بحث المشروعات السياقي ، والذى يعكس فلسفة ليبرالية ، مصاحبة للتحول الاجتماعي الذى احدثته السياسات التي تدعو إلى الإصلاح التدريجي المعياري والقائم على الإجماع .

أما التيار الراديكالي ، الذى يضرب بجذوره في المادية الجدلية عن الماركسية والتوجهات نحو الممارسة Praxis orientations عند انتونيو جرامشى Gramsciفكان يركز بقوة على التحرير Emancipation والتغلب على صور عدم التوازن في القوة. وغالبا ما نجد بحوث المشروعات القائمة على المشاركة Participatory، في حركات التحرر ، ودوائر التنمية الدولية ، وتناضل بحوث المشروعات النسوية Femi-nist Action Research ، من أجل التحول الاجتماعي عن طريق عملية دفاعية ، لتعزيز الجماعات الهامشية في المجتمع ودعمها . وهناك تيار رابع ، عرف باسم بحوث المشروعات التربوية ، له جذوره في كتابات جون ديوي Dewey، الفيلسوف الأمريكي التربوي الكبير ما بين عامي ١٩٢٠ – ١٩٣٠ الذى كان يعتقد أن المعلمين النشطاء ينبغي عليهم أن يدمجوا أو يشاركوا في حل مشكلات المجتمع المحلى .

ولم يكن من المثير للدهشة ، أن يعمل المناصرين لهذا التيار أساساً على المؤسسات التربوية ، ويركزوا على تنمية وتطوير الخطط الدراسية ، والتنمية المهنية ، وتطبيق ما تعلموه في السياق الاجتماعي . وغالباً ما كان الباحثون القائمون ببحوث المشروعات يعتمدون على الجامعة ويعملون مع المدرسين في المدارس الثانوية والأساسية والطلاب في مشروعات تنجز في المجتمع المحلى .

ب- **<u>الأسس النظرية :</u>**

ظل النموذج القياسي Paradigm الأساسي للبحوث طوال القرون العيدية الماضية ، يرتبط بالوضعية المنطقية Logical Position . وقد أسس هذا النموذج على عدد من المبادئ ؛ يشمل ذلك ، الاعتقاد في أن هناك واقع موضوعي ، وأن المعرفة عنه يمكن اكتسابها فقط من خلال بيانات محسوسة يمكن توفير الخبرة بها والتحقق منها بين ملاحظين مستقلين ، وأن الظواهر تخضع لقوانين طبيعية ، التي يمكن للإنسان اكتشافها بوسيلة منطيقة من خلال الاختبار الإمبيريقى ، وبالاستعانة بالفروض الاستقرائية والاستنباطية المشتقة من قضايا النظرية العلمية . وتعتمد مناهجه بشدة على المقاييس الكمية ، مع الاهتمام بالعلاقات بين المتغيرات التي توضح على نحو شائع بواسطة أساليب رياضية . والوضعية التي استخدمها البحث العلمي و التطبيقي ، قد اعتبرها الكثيرون تتعارض مع مبادئ بحوث المشروعات .

وعبر النصف قرن الأخير ، بزغ نموذج قياسي جديد في البحث في العلوم الاجتماعية ، لتجاوز القيود والحدود التي كانت تفرضها الوضعية . ويمكن الإشارة إلى هذا النموذج على انه نموذج تفسيري Interpretive ، استناداً الى تأكيده على العلاقة بين تشكيل المفهوم استناداً الى الواقع الاجتماعي وبين اللغة . وهو نموذج يضم مداخل منهجية كيفية مثل الفينومينولوجيا ، والإثنوجرافيا ، والهرمنيوطيقا Hermeneutics ، ويتميز بالاعتقاد في أن الواقع يتم بناؤه من الناحية التصورية استنادا إلى السياق الاجتماعي ، وعلى نحو ذاتي ، وهو ذلك الواقع الذى يتأثر بالثقافة والتاريخ . إلا أنه لا يزال يبقى على مبادئ موضوعية الباحث ، على انه جامع سلبى ومفسر خبير للبيانات . ومع أن هناك عدداً من المنظورات تشارك مع النموذج القياسي التفسيري واستخدامه للمناهج الكيفية ذات الصلة ، إلا ان هناك بعض الباحثين الذين يشعرون أنه لا نموذج القياس التفسيري ولا نموذج القياس الوضعي يمثلون أبنية معرفية كافية يمك ان تدخل تحتها بحوث المشروعات .

وإنما بدلا من ذلك نظر الى نموذج القياسي المرتبط بالممارسة Paradigm of Praxis على انه ينطوي على الاطار الأساسي للصلات والروابط مع بحث المشروعات . والممارسة ، مصطلح استخدمه أرسطو Aristotle بمعنى العمل مع ظروف يواجها الإنسان لكى يقوم بتغييرها . وهي تتعامل مع النظم الفكرية والنشاطات السائدة في المجالات السياسية والأخلاقية التي يعايشها الناس . وكان أرسطو قد وضع الممارسة في مقابل التنظير Theory - بمعنى تلك العلوم والنشاطات المعنية بالمعرفة في ذاتها أو المعرفة من أجل المعرفة . وكان يعتقد أن الاثنين مطلوبين على درجة مساوية . أن المعرفة تشتق من الممارسة ، والممارسة تنمو من خلال المعرفة ، من خلال عملية مستمرة ، وهذا ما يمثل حجر الزاوية في بحث المشروعات . ويرفض الباحثون المهتمون بهذا النوع من البحوث فكرة حيادية الباحث ، ويفهمون أن الباحث الفعال في معظم الأحوال هو ذلك الباحث الذى يشدد على الاهتمام بحل المواقف التي تنطوي على إشكالية .

ثالثاً : الإجراءات المنهجية في تصميم بحوث المشروعات

تمثل بحوث المشروعات ميداناً متجدداً في البحث ، ومن خصائصه المميزة ، الاعتراف بالمتطلبات العملية من جانب الممارسين بضرورة وجود بحث يقوم على التأمل في المواقف التي يعملون فيها (تعليمي – تنظيمي – تنمية ....الخ) . وتعد بحوث المشروعات بمثابة عملية صحيحة لتمكين كل المشاركين في هذا الموقف ، ومدهم بالوسائل التي تعمل على تحسين ممارساتهم في الواقع . ولذلك ، فإن كل المشاركين يعدون بمثابة أعضاء فعالين وعلى معرفة بعملية البحث . وقد وصفت بحوث المشروعات بأنها نموذج غير رسمي ، وكيفي ، وذاتي ، وتفسيري ، وتأملي ، ويقوم على الخبرة experiential ، والذى فيه يعد كل الأفراد المندمجين في الدارسة بمثابة مشاركين فاعلين وعارفين لأهميته . وهناك عددا من النماذج المتاحة في التراث ، معظمها يعتبر بحوث المشروعات بمثابة عمليات لا تسير في خط واحد ، وتستند إلى الاعتقاد بأنه لا يمكن التنبؤ بسلوكيات الناس ، وأن افعالهم غالبا ما لا تتدفق في مسار مستقيم .

ولذلك فإن خطة العمل تأخذ شكل الدائرة ، التي تبدأ بالتعرف على مجال التطبيق الذى يجرى عليه البحث ، ثم تخيل الحل ، ثم تقييم الحل ، وبعد ذلك إحداث التغيير في ضوء التقويم وأن هذه الدائرة لبحث المشروعات ، يمكن أن تتكرر الى دوائر جديدة في هذا البحث ، كلما برزت هناك مجالات جديدة للبحث . ولذلك من الممكن تصور سلسلة من الحلقات لبيان عمليات تطوير التطبيق . ويمكن أن تتضح هذه العمليات على هيئة حلزون من الدوائر ، حيث فيه تشكل قضية ما الاساس لأخرى ، وكلما تمت الإجابة على سؤال ، يتولد أسئلة أخرى .

وكان إليوت Elliott (١٩٩٣) قد اعتبر أن اسس عملية تصميم بحوث المشروعات تتجسد في مجرد الدائرة المميزة التالية :

- في الاصل هناك موقف استكشافي يتم تبنيه ، حيث تجرى بلورة وفهم المشكلة ، وتوضع خطط في شكل استراتيجية للتدخل (الاستكشاف والخطة العامة Reconnaissance)
- وعندئذ يتم تنفيذ التدخل (المشروع في البحث).
- وخلال وقت حدوث التدخل ، يتم جمع ملاحظات وثيقة الصلة بالموضوع بأشكال مختلفة (رصد وإنجاز بواسطة الملاحظة)
- ثم تنفيذ استراتيجيات التدخل الجديدة ، وتكرر العملية الدائرية حتى يتم تحقيق فهم كافٍ للمشكلة (أو انجاز حل ممكن) (التأمل والمراجعة Reflection and Revision)

وهذا التصميم دائري في طبيعته ، قصد فيه دعم الفهم العميق للموقف المدروس ، ويبدأ بصياغة تصويرية وتحديدا للمشكلة ، وينتقل خلال عمليات تدخل عديدة ، وعمليات تقويم .

وكان كيمس S.Kemmis (١٩٨٥) قد قدم نموذجاً بسيطاً لبحث المشروعات يعكس الطبيعة الدائرية للعملية النموذجية في بحوث المشروعات حيث تشتمل كل دائرة على أربع خطوات ؛ الخطة ، العمل ، الملاحظة ، التأمل . واستطاع أن يعبر عن ذلك التصميم في الشكل الهندسي التالي :

الدائرة الأولى :

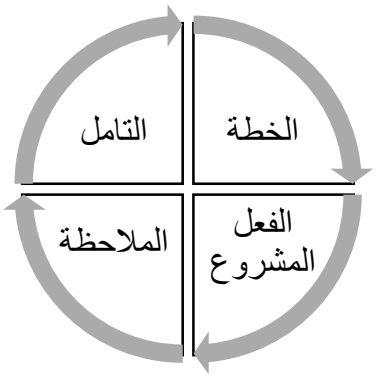

الدائرة الثانية :

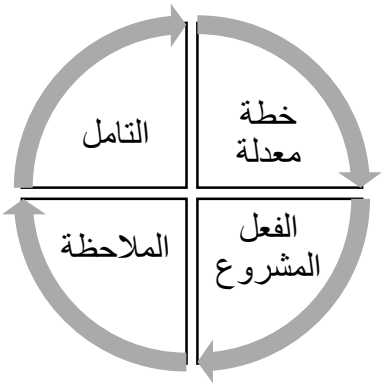

وكان سوسمان G.Susman قبل ذلك (١٩٨٣) قد قدم قائمة أكثر تطورا في بعض الشيء . وتمكن من التمييز بين خمسة خطوات يمكن تنفيذها في داخل كل دائرة في البحث . ففي الأصل والبداية ، يتم التعرف على المشكلة وتجمع البيانات ، بهدف المزيد من التشخيص الدقيق . ويلى ذلك ، افتراض جماعي بالحلول العديدة الممكنة ، والتي قد ينشأ عنها خطة العمل ويتم إنجازها . ويتم جمع بيانات حول نتائج التدخل ، ثم تخضع للتحليل وتفسر النتائج في ضوء مقدار النجاح الذى تحقق للمشروع وعند هذه النقطة ، يتم اعادة تقدير المشكلة ، وتبدأ عملية الدخول في دائرة أخري ، وتستمر هذه العملية إلى أن يتم حل المشكلة وهذا ما يوضحه الشكل التالي :

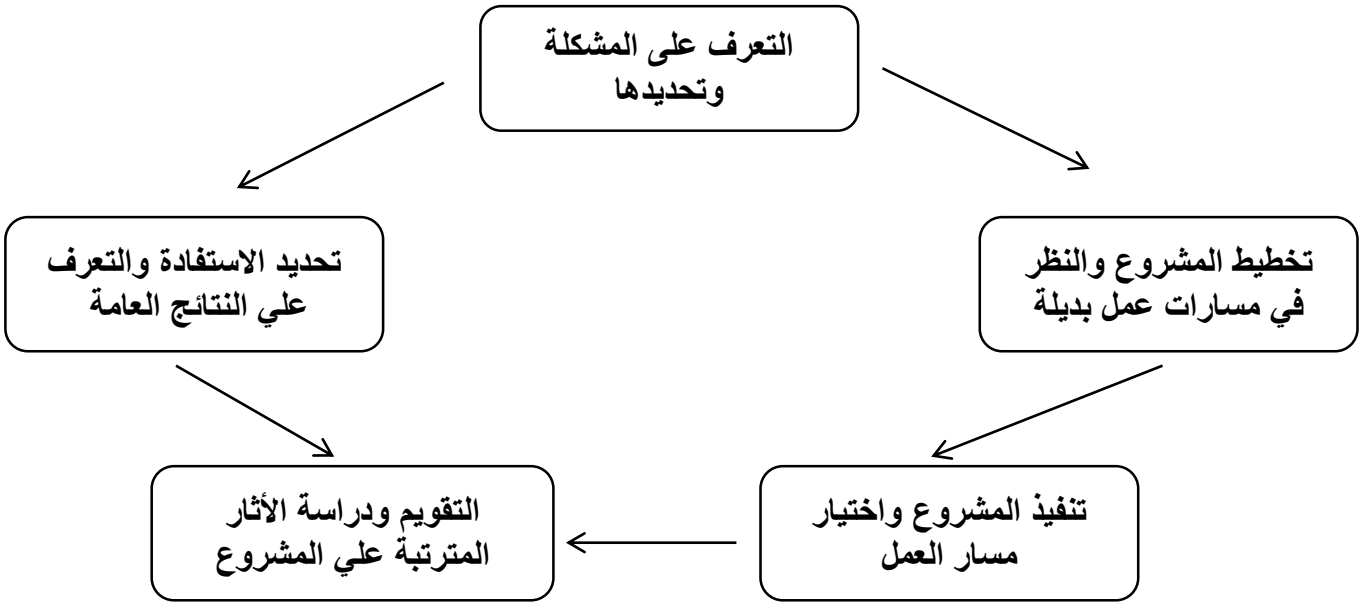

وهكذا يتضح لنا أن هناك عدة خطوات ، أو مراحل ، أو إجراءات لابد منها عند التفكير في وضع تصميم منهجي لبحوث المشروعات هي :

أ - التعرف على القضية المثيرة للجدل من خلال تشخيصها وتحديدها .

ب - تخيل الحل الممكن ، بناء على مشاركة كل المساهمين في البحث .

ج - تجريب الحل في الواقع باستخدام وسائل التدخل المتاحة .

د - تقييم الآثار المترتبة على هذا الحل ، ورصد الإيجابيات والسلبيات .

هـ - إدخال التغيرات على الموقف المدروس في ضوء ما يسفر عنه التقييم في كل حلقة من حلقات بحوث المشروعات .

وتطل هنا مجموعة من التساؤلات التي تحتاج الى إجابة لأهميتها في تصور التصميم المنهجي لبحوث المشروعات ، لعل من أهمها ما هو دور الباحث ؟ وما الأدوات والطرق التي يمكن الاعتماد عليها في بحوث المشروعات ؟ وما المبادئ التي تحكم تصميم هذا النوع من البحوث ؟ وهل هناك اعتبارات أخلاقية علينا مراعاتها ؟

أ- دور الباحث في بحوث المشروعات : بناء على دعوة باحث من خارج المجال ، فإن مهمة هذا الباحث تتمثل في إنجاز تصميم بحث المشروعات بالطريقة التي تعمل على التوصل إلى نتيجة يمكن الاتفاق عليها بالتبادل من جانب كل المشاركين ، مع الحفاظ على استمرار العمل معهم في هذا الاتجاه . ولتحقيق ذلك ، قد يكون من الضروري تبنى مجموعة أدوار متباينة على مختلف المراحل التي تمر بها عملية البحث وتشمل (القائد المخطط ، والمحفز والميسر ، والمعلم والمصمم ، والمنصت ، والملاحظ ، والمؤلف ، وكاتب التقرير) .

وإن كان الدور الأساسي بطبيعة الحال ، هو تعبئة القادة المحليين إلى النقطة التي يمكن لهم تحمل مسؤوليتهم من أجل تحقيق أهداف البحث ويتم التوصل إلى هذه النقطة عندما يكونوا قد استوعبوا المناهج وأصبحوا قادرين عللي تنفيذها ، في اللحظة التي يغادر فيها الباحث المبادر موقف ومجال البحث . إن دور الباحث الذى يتم الاستعانة به في الكثير من مواقف بحوث المشروعات في الأصل هو أن يتاح له الوقت الكافي لتسهيل الحوار ودعم التحليل التأملي والذى يشغل تفكير واهتمام المشاركين ، ومدهم بالتقارير الدورية ، وكتابة التقرير النهائي ، عندما يكون وقت مشاركته في البحث قد انتهي .

ب – الأدوات والطرق المستخدمة في بحوث المشروعات : إن بحوث المشروعات أكثر من مجرد مدخل كلى في البحث عن حل للمشكلات ، ولا يعتمد على منهج واحد في جمع وتحليل البيانات . وهكذا ، فإنه يسمح بالاستعانة بالعديد من أدوات البحث المتباينة ويستخدمها في تنفيذ المشروع وتشمل هذه المجموعة المتباينة من المناهج ، والتي يشيع استخدامها عموما في نموذج القياسي للبحث الكيفي ، الاستمرار في مسح التراث والدراسات السابقة في الدوريات العلمية ، وجمع الوثائق وتحليلها ، وتسجيلات الملاحظة بالمشاركة ، والمسوح التي تعتمد على الاستبيان ، والمقابلات المقننة وغير المقننة ، ودراسات الحالة . إذ يحتاج التعرف على القضية موضع الخلاف ، والمشكلة التي تحتاج إلى حل في موقف من مواقف الحياة اليومية ، وتتطلب إجراء بحث مشروعات ، ضرورة تقديم شخص دقيق لها وتحديد أهداف دراستها ، وربما كان الاعتماد على مسح التراث ، وجمع الوثائق وتحليلها من بين الأدوات المستخدمة في هذه المرحلة من بحوث المشروعات .

ويحتاج تخيل الحل الممكن بناء على مشاركة كل المساهمين ، الاستعانة حصريا بأسلوب مؤتمر البحث Search Conference ، الذى تبلور كأداة يمكن أن تفيد منها بحوث المشروعات ؛ لأنه يتلاءم مع الكثير من احتياجاته ، وما سنوضحه بالتفصيل فيما بعد . ويتطلب تجريب الحل الذى انتهي إليه مؤتمر البحث ، استخدام وسائل التدخل المتاحة ، كخطوة أخرى من خطوات تصميم بحوث المشروعات ، والتي تتمثل في وضع خطة عمل ، أو تنفيذ استراتيجية ، أو برنامج محدد انتهي فريق البحث إلى اعتباره حلاً ممكنا لمشكلة البحث . ولتقييم الآثار المترتبة على هذا الحل ، ورصد الإيجابيات والسلبيات تمهيدا لإدخال تعديلات جديدة على الحل المقترح في البداية ، ربما افادت أدوات وطرق في البحث ، مثل (الملاحظات بالمشاركة ، والمسوح ، والاستبيانات ، والمقابلات المقننة وغير المقننة ، ودراسات الحالة في هذا الصدد) . ويتطلب إدخال التعديلات على الموقف المدروس ، والتي أسفر عنها جهد التقييم في المرحلة السابقة من مراحل بحوث المشروعات ، الاستعانة بأسلوب مؤتمر البحث مرة أخرى وهكذا .

ج – مؤتمر البحث كأداة أساسية في بحوث المشروعات : وبين أدوات البحث التي يستعين بها القائمون ببحوث المشروعات ، يمكن أن نتوقف عندما يعرف باسم مؤتمر البحث كأداة تم تطويرها حصريا لتناسب الاحتياجات التي يفرضها مدخل بحوث المشروعات ، والذى أضافه في الأصل كل من ترست إمرى E.Trist & F.Emery ومعهد تافستوك في عام ١٩٥٩ . وهذه الصيغة لمؤتمر البحث قد طرأ عليها تطورات كثيرة ، وأصبح معروفا تحت مسميات أخرى بين الأكاديميين والتنفيذيين ، مثل إعادة تصميم نموذج المؤتمر عند أكسلرود Axelrod ، والمجال المفتوح Open Space عند أوين Owen ، والتخطيط الاستراتيجي Strategic Planning (رودا Randa) ١٩٩٥ .

ويلخص ترست عملية مؤتمر البحث بأسلوب لطيف ، إنها تجرى في جماعات والتي تشمل على مجموعة الأمناء ذوي الصلة . وتلتقى الجماعة في ظروف اجتماعية معزولة لمدة (٢-٣) أيام وقد تصل أحيانا إلى (٥) أيام .

وتركز الجلسات المفتوحة على توضيح العوامل التي لها تأثيرها في سياق البيئة الأوسع ، تلك التي تحدث ما وراء المشكلات ، والتي يحتمل أن يكون لها تأثيرها في المستقبل . ويقوم محتوى ومضمون الجلسات على الاسهامات التي يقدمها الأعضاء . بينما تظل هيئة البحث تلعب دور الميسر للعمل . وتوضع قائمة بنود اللقاء للمرة الأولى بدون انعقاد في جلسة الانعقاد ، وتعرض في صورة خرائط متحركة تحيط بالغرفة . وتتم مناقشة هذه المادة بدرجة كبيرة من العمق في الجماعات الصغيرة ، أما الصيغة التي يتم التوصل اليها تراجع في جلسات الانعقاد . ثم تعود الجماعة بفحص ومراجعة موقفها التنظيمي في مقابل هذه الخلفية الأوسع ، ثم تشرع في بناء صورة عن المستقبل المرغوب فيه . والمدهش ذلك القدر من الاتفاق الذى يحدث بعد ذلك . وفي هذه اللحظة ، يمكن للمشروع أن يخطو خطوات أخرى . ويقدم الجدول التالي إطارا لمؤتمر البحث النموذجي :

مرحلة ما قبل المؤتمر	• تكوين جماعة استشارية من الممثلين المحليين . • الموافقة على تصميم المشروع والمشاركين . • استخدام جماعة بؤرية تتولى مهمة الإعداد . • الدعوات ، وتوزيع المواد التمهيدية .
الجلسة التمهيدية	• مقدمات ، استعراض الأهداف ، وصف معالم العمل ، عرض وتقديم المرحلة الأولى .
اجتماع الجماعة الصغيرة (١)	• فحص القضية . • في السياق الماضي والحاضر . • تقدير الموقف الحالي . • توضيح معالم المستقبلات المحتملة .
جلسة عرض	• التقارير التي أعدتها الجماعات الصغيرة ، واتجاهات المناقشة ، وتقديم المرحلة الثانية .

اجتماعات الجماعة الصغيرة (٢)	• المستقبلات المرغوب فيها . • رؤى المدى الطويل. • مستقبلات بديلة ومنفصلة .
جلسة عرض	• التقارير ، وتتبع التقدم ، وتقديم المرحلة الثالثة .
اجتماعات الجماعة الصغيرة (٣)	• خيارات من أجل التغيير . • القيود والفرص . • مستقبلات ممكنة .
جلسة عرض	التقارير وتحديد المهام الاستراتيجية والأعمال ، واختيار المهام الأساسية ، وتشكيل جماعات العمل .
جلسات جماعة العمل	• اجتماعات جماعة العمل Task .

جلسة نهائية	• تقارير جماعة العمل ، مناقشة الاتصالات المستقبلية ، وتكوين جماعة استشارية جديدة .
مرحلة ما بعد المؤتمر	• توزيع التقرير . • متابعة الاتصالات . • تيسيرات الجماعة الاستشارية - مقابلات جماعات العمل . • العائد من الاستجابات على الأعمال المقترحة . • مؤتمرات بحث أخرى . • توسيع الشبكة . • الاستمرار في تقييم النتائج .

وهذا الشكل يوضح بالتفصيل البرنامج الذى يجرى تنفيذه في هذا المؤتمر والجماعات التي يتكون منها ، الجماعة الاستشارية و أعضاؤها يمثلون المجتمع المحلى ، والجماعة البؤرية المسؤولة عن الإعداد للمؤتمر والجماعات الصغيرة التي ينقسم اليها المشاركون في المؤتمر .....الخ وجلسات المؤتمر ، والجلسة النهائية ، وما يسبق المؤتمر من مراحل إعداد ، ومراحل لبعد المؤتمر . وتفاصيل مهام كل جماعة ، والجلسة ، والاجتماع ، والواجبات المطلوبة .

د- مبادئ إرشادية واعتبارات أخلاقية لبحوث المشروعات : وتعمل هذه المبادئ على إعطاء طعم فريد لبحوث المشروعات ؛ وهي عبارة عن مجموعة من المبادئ التي توجه وترشد البحث ، لخصها ونتر Winter في ستة مبادئ أساسية (١٩٨٩)

المبدأ الأول : النقد التأملي Reflexive Critique وهو عبارة عن تقرير عن الموقف ،في شكل مذكرات ونصوص ووثائق رسمية ، وما سوف يجعل الادعاءات الضمنية جديرة بالقبول ، وواقعية وحقيقية . لأن الحقيقة في الموقف الاجتماعي ، نسبية بالنظر إلى قائلها . ويجعلنا مبدأ النقد التأملي نضمن أن يفكر ويتأمل الناس في القضايا والعمليات ، ويعمل على جعل التفسيرات واضحة وكذلك التحيزات والافتراضات والاهتمامات التي تبنى عليها الأحكام . وبهذه الطريقة فإن التقارير العملية ، يمكن أن تثير الاعتبارات النظرية .

والمبدأ الثاني : النقد الجدلي Dialectical Critique ؛ إن الواقع الاجتماعي على وجه الخصوص يكتسب مصداقيته على نحو اتفاقي ، والذى يقال عنه ، إنه عبارة عن المشاركة من خلال اللغة . والظواهر تتم صياغتها تصوريا في أثناء الحوار ، لذلك فإن النقد الجدلي مطلوبا لفهم مجموعة العلاقات بين كل من الظاهرة وسياقها ، وبين العناصر المكونة لهذه الظاهرة ، وتركيز الانتباه على العناصر الاساسية أو على تلك العناصر المتغيرة ، أو التي تتعارض مع بعضها الآخر . لأنها هي العناصر التي يحتمل أكثر أن تحدث التغيرات ،

والمبدأ الثالث : المورد التعاوني collaborative لأن المشاركين في بحوث المشروعات هم مشاركون ومتعاونون مع الباحثين . ويفترض مبدأ المورد التعاوني أن أفكار كل مشارك لها قيمة متساوية كموارد كافية من أجل ابتكار فئات تفسيرية للتحليل والتفاوض بين المشاركين .

وهو مبدأ يناضل من أجل تجنب تشويه المصداقية الناشئ عن المكانة الأفضل لصاحب الفكرة . وهو يعمل خاصة على إمكان أن تكون الاستبصارات واضحة وجلية من خلال الإشارة إلى التناقضات بين الكثير من وجهات النظر وفي داخل كل وجهة نظر واحدة .

أما المبدأ الرابع فهو يتعلق بالمخاطرة Risk لأن عملية التغير تهدد بالضرورة كل الأساليب التي تكونت سابقا في القيام بالأعمال ؛ وهكذا تنشأ مخاوف نفسية بين المشاركين . ويأتي واحد من أكثر المخاوف ظهروا عن الخطر كف الذات عن المناقشة الصريحة لتفسيرات المرء وأفكاره وأحكامه . وسف يستخدم المبادرون ببحث المشروعات هذا المبدأ في تهدئة

مخاوف الآخرين والدعوة إلى المشاركة من خلال الإشارة إلى أنهم سوف يتعرضون أيضا لنفس العملية ، وأن العملية ستتم ، مهما كانت النتيجة .

والمبدأ الخامس ، هو البناء الجمعي Plural Structure لأن طبيعة البحث تجسد تعدد وجهات النظر ، والانتقادات ، والتعليقات ، التي تؤدى إلى أفعال جماعية ممكنة وتفسيرات هذا البناء الجمعي للبحث يتطلب نصا جمعيا لوضع تقرير عنه ؛ وهذا يعنى أنه سوف يوجد هناك تقارير كثيرة ، تعمل على وضوح التعليقات على التناقضات ، وتوسيع نطاق الآراء حول العمل المقدم ؛ ولذلك فإن التقرير يعمل على دعم استمرار المناقشة بين المشاركين أكثر من اعتباره نتيجة نهائية حول العمل . ويتمثل

المبدأ السادس والأخير ، حول التحول بين النظرية والممارسة Theory , Practice ,Transformation. فالنظرية فيما يرى القائمون ببحوث المشروعات ، تمد التطبيق بالمعرفة ، وتعمل الممارسة على تنقيح النظرية ، وذلك من خلال عملية تحول مستمرة . وفي أي موقع ، تبنى أفعال الناس على مسلمات ضمنية ، ونظريات وفروض ، ومع كل نتيجة تمت ملاحظتها ،

يحدث تعزيز للمعرفة النظرية والجانبان يتداخلان في كل عملية تغير وحيدة . وأنه يترك للباحثين أمر التعبير صراحة عن المبررات النظرية لأفعالهم ومشروعاتهم Actions ، والتساؤل عن الأسس التي تقوم عليها هذه المبررات .
وتخضع التطبيقات العملية التي ترتب على ذلك لمزيد من التحليل ، في دائرة تحولية ، تعمل باستمرار على تبديل محور التركيز بين النظرية والممارسة . وإلى جانب تلك المبادئ الموجهة لبحوث المشروعات ، هناك مجموعة من الاعتبارات الأخلاقية ، في إجراء هذا النوع من العمل ، ينبغي على الباحثين إعطائها اهتماما كبيرا ، وذلك لأن بحوث المشروعات تنفذ في ظروف العالم الواقعي ، وتشتمل على عمليات اتصال مغلقة ومفتوحة بين الناس المشاركين فيها .

وقد وضع وينتر Winter(١٩٩٦) قائمة بهذه الاعتبارات :

- التأكد من أن الأشخاص ذوى الصلة ، والمجالس والسلطات قد تم استشارتهم ، وأنهم جميعا قبلوا مقدما ووافقوا على المبادئ الموجهة لهذا العمل .
- ضرورة السماح لكل المشاركين ، للتأثير في هذا العمل ، واحترام رغبات اولئك الذين لا يريدون المشاركة .
- وضرورة أن يظل تطوير العمل متاحا أمام مقترحات الآخرين .
- ضرورة الحصول على الموافقة قبل القيام بالملاحظة أو فحص المستندات التي كانت مخصصة لأغراض أخر
- ضرورة التفاوض على التقارير عن أعمال وآراء الآخرين ، ومع من يهمهم الأمر قبل نشرها .
- ينبغي على الباحثين أن يقبلوا مسؤولية المحافظة على السرية .

رابعاً : تنفيذ بحوث المشروعات

يتوافر في التراث العديد من الأمثلة على جهود سابقة نفذت مشروعات ، ولكى نوضح بشكل أفضل كيف يمكن إجراء بحوث المشروعات ، سنعرض هنا بعض الدراسات السابقة والمتاحة في التراث .

١- بحوث المشروعات والوقاية من الإدمان : في دراسة الحالة المشار اليها هنا ، تم استخدام بحوث المشروعات في مجال الوقاية من الإدمان ، باعتباره مدخلاً يركز على دور تنمية المجتمع والاندماج فيه ، لأن الوقاية من الإدمان ربما تكون أكثر عناية بقضايا أوسع ترتبط بنوعية وجوده الحياة . وما يعتبره السكان أكثر أهمية سوف يؤثر على تقليل الطلب على استخدام المخدرات ، ولتحقيق هذه الأهداف تم الاستعانة ببحوث المشروعات والتدخل لتعبئة المجتمع المحلى للحد من انتشار المخدرات والتدهور الاقتصادي والاجتماعي في هذا المجتمع .

وعملت الهيئة المكلفة بهذا البحث على ابتكار استراتيجية للوقاية من الإدمان يديرها المجتمع المحلى ، وتعمل على استشارة المجتمع المحلى حول اساءة استخدام المخدرات ، فضلا عن تنمية وعيهم حول ما ينبغي أن تشتمل عليه عملية الوقاية من الإدمان ، وتشجيعهم على الاندماج في المشروع والتأثير على صناع السياسة من أجل إحداث التغير المناسب

. وتعددت الطرق والمناهج المستخدمة في البحث بين المقابلات الجماعية والفردية المتعمقة ، فضلا عن صحائف الأنباء ، لعرض النتائج الأولية ، ليقوم السكان بالتعليق عليها والتقدم بمقترحات جديدة على المشروع . وقد بنى البحث على افتراض مضمونه أنه طالما أن كل الشركاء ، ابتداءً من الهيئة المكلفة بالبحث والسكان المقيمين والمنظمات المحلية ، لها مصالحها المشتركة وهدفها العام ، فإنه يمكن أن يتقدم مشروع البحث بناء على هذا الإجماع العام .

ولقد نجح البحث بدرجة كبيرة في استثارة آراء السكان حول المخدرات والوقاية منها ، وتنبيه وعيهم ، وسلط الضوء على التوترات التي ظهرت بين المجتمع المحلى وهيئة التجديد الحضري المحلية التي كانت مسؤولة عن تمويل البحث . وذلك نتيجة للانتقادات الشديدة التي كان يوجهها السكان للمداخل التي تم تبنيها من جانب هيئة الإصلاح التي يقودها رجال الأعمال في المجتمع المحلى ، ورغم أن البحث نجح في بلورة خطة عمل من أجل الوقاية وتكوين منتدى للوقاية من الإدمان يضم السكان وممثلي بعض الهيئات ، إلا ان هيئة الإصلاح وقفت موقف المعارض لهيئة البحث ، وللباحث الرئيسي ، ولوجهات نظر السكان ، وأوقفت تمويلها لمشروع البحث ولكن السكان عبروا عن رغبتهم في الاستمرار والمشاركة في نشاطات المنتدى والمشروع .

٢- تنمية السياحة الطبيعية في جزر ويوارد : Development of Nature Tourism in the Windard Islands

في عام ١٩٩١ ، تمت المبادرة بإجراء بحث للمشروعات للكشف عن الكيفية التي يمكن بها تأسيس سياحة طبيعية على كل من جزر وينوار الأربعة في الكاريبي Caribbean جزيرة سانت لوسيا St.Lucia ، وجزيرة Grenada ، وجزيرة Dominica ، وجزيرة سانت فنست St.Vincent . وقادت الحكومة هذا العمل ، من أجل الحفاظ على البيئة ، وتحقيق التنمية بمشاركة المجتمع المحلى ، وتحقيق أهداف التنمية على مستوى الاقتصاد القومي . وللتحقق من أن عملية الاستشارة ينبغي أن تضم الكثير من الأمناء ، بما في ذلك ممثلين للوزارات العديدة في الحكومة ، والجماعات المهتمة بالبيئة والموروث الثقافي ، وتنظيمات المجتمع المحلى ، وجماعات الشباب والنساء ، وتعاونيات المزارعين ، وهيئات العمل الخاصة .

اعتبر مدخل بحوث المشروعات هو الأنسب في هذه الظروف . ودعي للإشراف على هذا البحث اثنين من الباحثين ذوى الخبرة في بحوث المشروعات من جامعة يورك في تورنتو Toronto ، ولهم خبرة سابقة في المنطقة (جزر وينوارد) ، وتم التعاقد معهم لإنجاز هذا المشروع ، وكان أغلب التمويل قد توافر عن الهيئة الكندية للتنمية الدولية ، وشكلت مجالس للاستشارة من أمناء عديدين على مستوى قومي ، وتم اختيار المنسقين للمشروع على المستوى القومي ، من خلال منح محلية للمشروع . وكانت مهمتهم الأساسية الأولى هي تنظيم (مؤتمر بحث) في كل جزيرة . وبعد عقد المؤتمرات البحثية ، ظهر لها نتائج كان من بينها مجموعة توصيات ، وخطط عمل لتنفيذ عدد من المشروعات الفرعية المهتمة بالسياحة الطبيعية ، على مستوى المجتمع المحلى . وفي هذه اللحظة ، تم تشكيل جماعات استشارية ، في عديد من الجزر ، كما تم إنجاز نشاطات لتنمية الوعى القومي ومشروعات فرعية في بعض المجتمعات المحلية .

ولاستمرار العمل ، تم عقد لقاءات لأقاليم المشروع ، حيث يتمكن المنسقون للمشروع وأعضاء الجماعة الاستشارية الأساسية تقاسم الخبرات ، وإجراء تقويمات ذاتية ، وبلورة خطط للمحافظة على سير العمل . (مثل زيادة التمويل) . وكان من بين الأدوات الأكثر قيمة لبناء الإحساس بالمجتمع المحلى ، استخدام (كاميرا فيديو) لتوثيق ما يجرى في المشروع المحلى بالصور . ولقد جاءت النتائج متباينة ؛ ففي جزيرة سانت فنست St.Vincent حقق مشروع البحث درجة عالية من النجاح مع إدخال تطورات محلية عديدة لها قيمتها . وظهر في جزر جرينادا Grenada وسانت لوسيا St.Lucia نتائج مختلطة ، وكانت جزيرة دومينسكا Dominica أقل نجاحا ، وقامت الحكومة باختصار العمل بعد عقد مؤتمر البحث مباشرة . وكانت الاختلافات الأساسية في النتائج ، متمثلة في رغبة موظفي الحكومة في السماح بأن يتمكن كل المشاركين من المساهمة في ضبط العمل بالتعاون .

وكان هناك أيضا خطر بأن هذا النوع من البحث سوف يمكن الأمناء ويقوى سلطتهم ، ويحدث تغيرا في علاقات القوة القائمة ، ذلك التهديد الذى كان يعانى منه كثيرا بعض صناع القرار ، ولكن ظهر أشياء كثيرة منها أن الجماعة المشاركة من المواطنين تمكنت من إنجاز ما كان يصعب عليها تحقيقه بغير ذلك ، لأنه قد أعطيت لهم الفرصة .

أسئلة المحاضرة التاسعة

س١/ (لا تعتمد بحوث المشروعات على منهج واحد في جمع وتحليل البيانات) تحدثي / تحدث بالتفصيل عن الأدوات والطرق المستخدمة في بحوث المشروعات